مجلة سيميائيات
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973
المجلد: 17 العدد: 02/ مارس 2022
ص: 903- 916

جماليات الطبيعة وتأثيرها في الصناعة البيانية -الشعر المغاربي أنموذجا-

The aesthetics of nature and its impact on the graphic industry - Maghreb poetry as a model

قدور سعد عيسات*[1]، أ.د نور الدين دحماني [2]

[1] جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم (الجزائر)، aborabee85@gmail.com

[2] جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم (الجزائر)، البريد المهني dahmanor@) gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/12/23 تاريخ القبول:2022/02/06 تاريخ النشر: 2022/03/28

ملخص: لا يخفى تأثير الطبيعة على الوجدان البشري، كونه صفحة تنطبع فيها ما تراه العين فيتحرك القلب نحو ما يجذبه فيسرح الخيال وتتداعى المشاعر، إن الطبيعة الجميلة عبارة عن مادة صفاء يستنشقها الشعر لينفخ بالقصائد أكثر، ويجد فيها المرء متنفسا لقريحته الشاعريَّة حتى يحسن ويُجيد، وهو لا يفتأ يحاكي جمال الكون الفسيح بلغته وصوته ورنَّاته، وأهمية البحث تتجلى في بيان كيفية تأثر اللغة بجماليات الطبيعة التي يسكنها الفنان الشاعر وكيف تؤثر في إبداعه، لكي نبين بالنماذج الحية التطبيقية هذه التأثيرات المندرجة تحت الوجه الثاني لنظرية المحاكاة.

وقد اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي ليبلغ المقال غرضه من البيان العلمي، ووصلنا إلى نتائج بحثية تتمثل في توضيح جدلية العلاقة بين الطبيعة والإنسان كونه جزء منها، وكيف تتم المؤثرات الخارجية في تكوين المنحى الفكري عند البشر وخاصة عند الشعراء، وأنها كثيرا ما تكون مصدر إلهام لمن يتأهل لذلك ببراعته وحسه، أو بطبعه وحدسه، وأن الجهة المغاربية تنوعت فيها التأثيرات لأنَّ مناخها متنوع وأرضها ذات بيئات مختلفة كالبيئة الصحراوية والتلية وغيرها مما له أثر في التكوين النفسي للإنسان من جهة وللذات الشاعرة من جهة ثانية.

الكلمات المفتاحية: جماليات، الطبيعة؛ تأثير؛ الصناعة؛ البيانية؛ الشعر، المغاربي.

ABSTRACT: The effect of nature on the human conscience is not hidden, as it is a page in which what the eye sees is imprinted, so the heart moves towards what attracts it, so the imagination is released and feelings erupt. He continues to simulate the beauty of the vast universe with his language, voice and rings, and our goal in this research is to show how language is affected by the aesthetics of nature inhabited by the poet artist and how it affects his creativity, in order to show with applied living models these effects that fall under the second face of simulation theory.

We have adopted the descriptive-analytical approach in order for the article to reach its purpose of the scientific statement, and that the Maghreb side has diversified influences because its climate is diverse and its land has different environments such as the desert environment and the hill and others, which has an impact on the psychological formation of man on the one hand and the poetic ego on the other hand.

Keywords: aesthetics, nature; Effect; Industry; graphic; Poetry, Maghreb.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إنَّ الطبيعة المغاربية على تنوعها تشترك في طابع واحد تطبع به سكّانها شمالا وجنوبا، بحيث نجد المناظر البهيجة والبساتين الفيحاء من جهة، كما نجد –من جهة أخرى- الواحات الغناء والأرضُ الرَّقاقُ الميثاء ([1])، فهي تشترك على العموم في الجمال الطبيعي الباهر، ثم هناك نقطة جوهريَّةٌ مؤثرة على سكان المنطقة وهي الطباع الواحدة، ومعلوم أنَّ الإنسان "ابن عوائده ومألوفه" أكثر من كونه ابنا لبيئته فقط. فكأنَّ له أُمَّينِ اثنتين أُمٌّ والدة هي العوائد والمألوفات، وأمٌّ مرضعة هي الطبيعة التي أطعمته لبان الوحي الشعري والإلهام الفطري السَّاحر، ولذلك فإن محاكاته لأجراس الطبيعة وتأثراته بأجوائها وخصوصياتها يجعله منطبعا بها عاكسا لها في تفكيره وكلامه نظما وبيانا.

الإشكالية: فهل الطبيعة مصدر إلهام وتأثير على الشعر، وإلى أي مدى يمكن ان تكون من المؤثرات التي تجعل الشعر ينطبع بها ويختلف بسببها من منطقة إلى أخرى تبعا لاختلاف الأجواء والأنحاء والتضاريس؟

منهجية البحث: اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي لبلوغ قصدنا من البحث، وحتى نجيب على وجه قريب من الصواب على الإشكالية المعروضة.

1.2. تأثير الطبيعة في المحاكاة الفنية للشاعر:

إنَّ تأثير الطبيعة يرجع لدى نظرية المحاكاة إلى أمرين ظاهرين كلاهما يؤثر في الفكر والفهم وصياغة النصوص:

الأول: اللغة: فإنَّ طريقة عرض الأفكار وخصوصيات التراكيب، تختلف من موطن إلى موطن عبر عوامل مختلفة منها البيئة والمناخ، ونحن إذا قلنا اللغة فلا يمكن أن تكون الكلمات اللغوية خالية من المضمون عارية عن المحتوى والفكر، فلكل كلمة معناه، ولكل مبنى دلالته، بحيث لا يوجد فرق بين الفكر واللغة، فهما وجهان لورقة واحدة، ومن قال بأنَّ الفكرة قد تكون واحدة ولكن الصيغ تختلف في تسطيرها، إنما يصح من قوله اجتماع الصيغ المتنوعة على الفكرة العامة فقط، أمَّا التفاصيل فإنه يستحيل أن تتطابق الأفكار بما تحمل من دلالات دقيقة في صيغ مختلفة في الجودة والإحسان، ومتفاوتة في البلاغة والإتقان، وإن هذا إلاَّ كالترادف اللفظي الذي لا يمكن أن نحصل منه إلاَّ على المعنى العام المشترك بين لفظ ومرادفه، لتبقى خصوصية كل لفظ على دلالته الزائدة والمختلفة عن لفظٍ سواه وإن كان يقوم مقامه إجمالا في أكثر الأحيان وأغلب المقامات.

إنَّ اللغة تتأثر بالطبيعة في أصل تكوينها، فكيف لا تتأثر بها في استمرار النَّشأة وتزايد النمو؟، وكثيرا ما كان يعبر الشعر عن طبيعة الشاعر المناخية، كما يعبر عن طبيعته الذاتية وجوه النفسي، وهو أمر واقعي جدا، كون العضو الذي يترجم ما تراه الحواس حولها في الطبيعة هو اللسان، فإذا بلغت الترجمة منزلة راقية كانت هي الشعر، وصارت حينئذ متربعة على عرشه الذي يُعلِيه، بالغة منزلته التي تُؤويه وترفَعُه.

الثاني: الصَّوت: وما يحتويه من جرس ونغمات، وكيفيات متنوعة في أداء الحروف ونطقها، ومحاكاة ما يراه ويشاهده ليعطي للحروف صفات خاصة تختلف من منطقة إلى أخرى ومن إقليم إلى ما عداه، بحيث يؤثر الجرس الصوتي في اختيار الحروف المناسبة لروي القصيدة، وموسيقاها الداخلية التي تشكل سنفونية الكلمات عند تأدية المعاني وتأليف الجمُل.

2.2. تفاعل جمالية البيان مع جمالية المكان:

ومن ذا الذي يرى غوطة المغرب والأندلس وأماكنهما البهيجة "وهي في ثوب الربيع؛ ثم لا يرقص لها قلبه ولا يفتن بها فتوناً؟ ومن ذا الذي يقطع عرض الفلاة، حيث يعتدّ ظل الصخرة القائمة جنة حادرة، ويرى الحشيشة الخضراء روضة الدنيا، ويرى البئر الآسنة مورداً صافياً، ثم يطل على .. جنة الأرض حقاً وروضة الدنيا، بأشجارها المزهرة المتعانقة وأدواحها الباسقة، وعيونها الدافقة وأنهارها الرائقة، ووردها وزهرها، وطيبها وعطرها، وفتونها وسحرها، ثم لا يجن بها جنوناً؟ وهل عدّ العرب الغوطة إحدى الروائع الأربع في متحف الطبيعة إلا بعد نظر وفكر؟" ([2]).

والواقع أنَّ الافتنان المذكور يعمل عمله في النفس البشرية عامة، ولكن عمله في نفس الشاعر أكبر من ذلك بكثير، وهو في الوقت نفسه أثمر للكلمات التي يجتنيها الشاعر النحرير مدبِّجا بها قصائده وأشعاره، قاطفا الأبيات البديعة من شجرة الطبيعة، وجمال الكائنات.

وننظر مثلا "الأديب أبي طالب عبد الجبار: من أهل جزير شقر، كان يعرف بالمتنبي، برع أهل وقته أدباً، وأعجبهم مذهباً، وأكثرهم تفنناً في العلوم، وأوسعهم ذرعاً بالإجادة في المنثور والمنظوم. وكان - بلغني – [أنَّه] ينخرط للمجون، ولا يبالي أين وقع، ولا يحفل بشيء صنع، ... فلم يطرأ على الدول، ولا تجاوز في شعره ملح الأوصاف والغزل. وله أرجوزة في التاريخ أغرب فيها، وأعرب بها عن لطف محله من الفهم، ورسوخ قدمه في مطالعة أنواع العلم؛ وقد أثبتها على طولها، لاشتمال فصولها على علم جليل، جملة من أشعاره في أوصاف شتى قال يصف مجاري الماء في سواقي أجنة بلنسية:

خرجنا للنزاهـــة في البقيع ** فنلنا الوصل من رشأ بديع.

وهب لنا النسيم بكل طيب ** كــــأنا منه في زمن الربيع.

على نهر كـــــأن الماء فيه ** بقايا فــوق خد من دموع" ([3]).

والقصيدة جميلة هذه؛ تعكس جمال الطبيعة في بيانها، وتحاكي سلاسة الماء في جريانه على وجه البسيطة وانسيابه انسيابا بطيئا رقيقا، تماما كهذه الأبيات المتدفقة بهدوء على الأسماع لتفتح قنوات القلب فتملأ الخاطر وتُرضِيَ الوجدان.

ويبين إحسان عباس أنَّ "أشعارا كثيرة أخرى دخلت الأندلس وتأثر بها الأندلسيون فحاكوها أو تغنوا بها ملحنة أدركنا أن تأثير الشعر المحدث في الشعر الأندلسي لم يكن مظهرا عابرا أو قليلا، ولكن هذا التأثير لم

يكن خيرا كله، فان ربقة التقليد خانقة تحول القابليات عن طريق الابتكار، ولو أن الأندلسيين نظروا من خلال أنفسهم مثلا إلى شعر الطبيعة لاستغنوا عن مناظرات ابن الرومي وتشبهات ابن المعتز الجامدة، ولاستوحوا بيئتهم" ([4])، في الوصف ودروبه وفنونه.

وقانا لفحة الرمضـــاء وادٍ ** سقاه مُصاعفُ الغيث العميم.

نَزلنا دوحَـــــه فحنا علينا ** حنُوَّ المرضعــات على الفطيم.

وأرشفنا على ظمَـــإٍ زلالا ** ألذَّ من المدامـــــة للنديم.

يصُـدُّ الشَّمسَ أنَّى واجهتنا ** فيحجِبُـــــها ويأذَنُ للنَّسيم.

يروعُ حصاه حالية العذارى ** فتلمسُ جانب العِقـد النظيم ([5]).

فقد شبهت الشاعرة حبات العقد المتناثرة من جيدها بحصى هذا الوادي الجميل مما جعل بعض النقاد يعدُّ ذلك إغراقا في التخيل البعيد عن الواقع المبني على الخديعة والتمويه ([6])، وكأنَّ الشاعرة هنا وهي امرأة تذكرت قصة بلقيس التي هي امرأةٌ مثلها وقد وردت قصتها في القرآن الكريم لما رأت قصرها الذي نقله الذي عنده علم من الكتاب إلى مملكة سليمان، وهي تعرف أنه مكانٌ ثانٍ فتعجبت من مشابهة قصرها لهذا القصر الذي ظنته للوهلة غير قصرها، فلما سألها عنه قالت: {كأنَّه هو} ([7])، فالشاعرة تمثلت الغذارى يرينَ حصى الوادي وكأنَّه حبات الجوهر المتناثر من عقودهنَّ، فرأى بعض النقاد أنَّ الصورة التشبهية هنا أقرب إلى الافتعال منها إلى تصوير الحال، ولكن في رأيي أنَّ الافتعال غير وارد البتة إذ الذي تسقط دنانيره في الماء الصافي المتلألئ فيأخذ في البحث عنها تشتبه عليه بعض الحصوات بدنانيره فيحملها على أنها هي وليست إلاَّ حصاة زادها الماء لمعانا وساعدها شكلها على الاشتباه بالدينار فيقع الوهم وتسرع اليد في التقاطها ثم يقع الخطأ مرة ثانية وثالثة في الوقت الواحد، كما حدث لمن نعرفه وعاينَّا ذلك وشاهدناه بأنفسنا، فليس هو إذن بعيد عن الواقع ولا مغرق في الخيال، فكيف بحبات العقد التي هي أشبه حقيقة بالحصى النقي المتلألئ، إنَّ الصورة والحالة هذه عبارة عن تجسيد لفكر امرأة تخاف على جوهرها فهي تتخيل لو سقط في ذلك الماء لاشتبه عليها ولصعب إيجاده واصطياده لكثرة أمثاله.

وقد بنى الناقد وهو الأستاذ العقاد رحمه الله على ذلك أنَّ أبيات المتنبي في وصف وادي بوان أفضل من هذه الأبيات ([8])، ولا سيما في الفكرة التي عالجت المعنى السابق، فالمتنبي يقول:

وأمواهٌ تصِلُّ بها حصاها ** صليل الحلي في أيدي الغواني.

فشبه الصوت بالصوت فقط، فجعل التشبيه صوتيا، ولم يشبه الشيء بالشيء ذاتيا، بخلاف ما فعلته الشاعرة فكانت لأنوثتها وحرصها على الحلي قد تخيلت تناثر الجواهر في الماء بخلاف المتنبي وهو في حال المسير إلى الطعان وقد امتطى ورفاقه الفرسان، فأي فكرة هي إلى الخوف من ضياع شيء بكائنة في روعه، وواجدة سبيلا إلى خياله وقد ربط جأشه وحمل سيفه، لذلك لم يكن لمعاني الخوف والإضاعة أن تجد

طريقها إلى قلبه وأن يسنح لها الظرف بالمرور إلى خياله، من هنا جاء تصويره ضعيفا بالقياس إلى المرأة في هذه الحالة، خاصة وهو لا ينتظر سوى صلصلة السيوف وقعقعة الرماح، فالصوت وما دار في فلكه وحام حوله هو الذي سكن جوانحه وما سوف يلاقيه فكان تعبيره من وحي إحساسه، فهو إحساس العابر وليس وقفة المتأمل، وهو شعور المستمع المتأهب للرحيل بما تتلقاه أذناه لا بما تتلقاه يداه، ولذلك عبرت هي عن الماء بالعذب الذي أرواها من العطش، في حين عبر المتنبي بأن ما يشربه في دوحة الوادي هو عصير الفواكه المتدلية على أغصانه فهو يقول:

لها ثمرٌ تشير إليك منه ** بأشربةٍ، وقفن بلا أوانِ.

إذ الأغصان قد لا قاها وعاينها عن قرب، ولم يعاين الوادي عن ملامسة وشرب، فوصف ما صادفه من الأعصان التي قال إنَّ خيله قد غدت تنفض الأغصان من طريقها، أما الماء الذي رآه وسمع صليل حصاه، فهو ليس كالمرأة التي لامسته كما قالت:

فتلمس جانب العقد النَّظيم.

والأمر بين العين والسمع كما قال ابن الرومي في رثاء ولده "محمد" من قصيدةٍ باكية:

هل العين بعد السَّمع تكفي مكانَه ** أم السَّمعُ بعدَ العينِ يهدي كما تهدي؟

وما راءٍ كمن سَمِع.

والمقصود أنَّ الأخيلة تتفاوت خاصة بين المرأة والرجل، وخاصة أن الظرف قد لا يساعد على المعنى الدقيق وإن كان على مقربة من فكره وخياله، كمثل شيء أمام عين الناظر ولا يراه فيفوته وإن كان بين يديه، ولا سيما وأن البيئة الأندلسية كانت مضرب المثل في توفر الأمن وتنوع الخيرات وتعدد المباهج وكثرة أسباب السرور وبواعثه.

3. مجانسة التأثير البيئي الطبيعي للتأثير البيئي الاجتماعي:

ليس عجبا بعد ما سبق بيانه؛ أن تكون هناك عوامل مساعدة ليتفوق شاعر على شاعر آخر في بعض المعاني وإن كان المتفوق لا يبلغ شأو من تفوَّقَ عليه ولا يدانيه منزلةً واقتدارا.

وهو ما يؤكِّد أن البيئة مثلها مثل الظروف الحادثة والحياة الاجتماعية الحاصلة تؤثر في طريقة التفكير ومن ثم تؤثر في نوعية التعبير، ولذلك تجد أن الموشحات ما كانت في الأندلس إلاَّ لأنها كانت البيئة المؤهلة يومئذ تأهيلا طبيعيا أكثر من غيرها لأن ينتج فيها هذا النوع من الشعر الذي كأنما اقتبس اسمه منها لما فيها من أنواع التوشيح الطبيعي والزينة المكانيَّة التي انعكست صورتها في التوشيح اللساني الآخذ بالترف التعبيري والواصل به إلى الغاية البعيدة والمنزلة العالية، وتلك حقيقة اللعب اللفظي الذي نرى صورته الخيالية في ذهن المتنبي في القصيدة السابقة حين وصف دوحة الوادي بقوله:

ملاعب جنَّةٍ لو سار فيها ** سيمان لسار بترجمان.

ومن عجبٍ أن اجتمع في هذا البيت الكلام عن ملاعب الجنة وتنوع اللغات التي تحتاج ترجمة وتعبيرا من نوع آخر وبلغة أخرى، لشدة ما في ذلك من التنوع والتعدد والتَّلوين.

وهنالك نماذج من الشعراء المتأثرين بالطبيعة، شخصيَّة أبي الوليد إسماعيل القاضي من بني عباد الذين "هم من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء، وبذلك كانوا يفخرون ويمدحون، وهذا ما يؤيده قول شاعرهم ابن اللبانة [الذي لُقِبَ بسموأل المغرب]:

نبتة لم تلد سواها المعالي ** والمعالي قليلة الأولاد.

و[قد] تألق نجم بني عباد، في أعقاب الفتنة، على يد جدهم [هذا] أبي الوليد إسماعيل قاضي إشبيلية، وكان قد تقلب قبل انهيار الخلافة في عدة من الوظائف الكبرى" ([9])، وقد مدحه ابن حيان جاعلا من مؤثرات نبوغه تلك الطبيعة الملهمة للخيال الشاعري والمفجرة لينابيع الإجادة والإحسان في نظم القصائد حيث يذكر حدة ذهنة وذكاء طبعه ليقول: " أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة، في معان أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واقتبسها الأدباء للبراعة" ([10]).

والمقصود بالطبيعة هنا هي الطبع الذاتي والفطرة الإنسانية من صفاء الخيال وإشراق البصيرة، ولا يخفى أنَّ الطبيعة الداخلية عادة ما تكون صورة عكسية للطبيعة في الخارج من جمال وروعة، وأنت ترى أهل الصحراء كالعرب في الجاهلية كيف امتاز شعرهم بالقوة والفحولة مستمدا أدوات قوته وفحولته من تلك الطبيعة الصحراوية الباعثة بالجزالة والأصالة والإحكام.

ولقد أثبت ابن خلدون كيف يتأثر وجدان المرء وعقله وطريقة تفكيره بالمناخ الذي يعيش فيه والبيئة التي يسكنها حتى قيل: "الإنسان ابن بيئته"، وكما هناك حتمية اجتماعية لا بد أن يخضع كل إنسان كما تجد المرء يتكلم بلهجة معينة دون لهجات سببها أنه كب وترعرع بين أهلها فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعيش بينهم وهو في الوقت نفسه يتكلم بلهجة مغايرة لهم تمام المغايرة، فكذلك الشأن في الحتمية الطبيعة فإنَّ الإنسان لا مناص له من التَّأثُر بها والخضوع لها وانطباع مزاياها وخصائصها في وجدانه وعقله وتكوينه الذي منه تتجسد لوحة مفاتيحه الشخصية بتعبير علماء النفس.

فنلاحظ أنَّ الطبيعة حاضرة في تشبيهاتهم ومتخللة في ثنايا شعرهم حتى في أشيائها البسيطة، كنبتة صغيرة طافت نضرتها وخضرتها وإزهارها في مخيلة الشاعر فمضى ينسج فكرة بيته من خلالها.

ومن أجزاء الطبيعة تلك القصور الفخمة والبيوت الفاخرة التي بناها الملوك فزينت وجه الطبيعة أكثر، وألهبت المشاعر حتى تفتق عنها الشعر الرقيق الذي يحاكيها بهجة وروعة وجمالا، قد اشتهرت على سبيل المثال قصور بني عباد في التاريخ وفي الشعر، و"قد كانت منها بمدينة إشبيلية قاعدة ملكهم عدة، منها قصر الإمارة وهو "القصر المبارك"، وقد كان يقع في شرقي نهر الوادي الكبير، في المكان الذي يشغله اليوم قصر

إشبيلية الشهير (El Alcàzar). والظاهر أنه كان من إنشاء المعتضد بن عباد، أو أنه هو الذي زاد فيه وأسبغ عليه رونقه وفخامته التي اشتهر بها. وقد كان ثمة أيضاً قصر الزاهي، وهو القصر الذي كان يتخذه المعتضد، ومن بعده ولده المعتمد، مكاناً للهو والقصف، وقد كان يقع على الضفة الأخرى من النهر، وتحيط به حدائق غناء، وقد ذكر لنا ابن زيدون في شعره، وذكر لنا المقري أسماء قصور أخرى تتصل بعصر المعتضد، وهي على الأغلب من إنشائه" ([11]).

ولقد بلغ بهم الوصف حتى تكلموا في كل شيء فتجدهم وصفوا الحمامات الموجودة في الأندلس كثيرا حتى قال جوزيف ماك كيب إنَّ من دلائل أن العرب كانوا أهل ثقافة وذوق كون الحمامات عندهم في قرطبة وحدها قارت الألف حمام مما يدل على عنايتهم الجسمانية واهتمامهم بالنظافة، وأما اليوم في القرن التاسع عشر فإنَّ الحمامات في قرطبة قليلة جدا مقارنة بما كانت عليه أيام سيادة المسلمين للأندلس ([12])، ومما ورد من الشعر قول: "المنفتل:

انظر إلى حمامنا قـد حكى ** حالين من حـال الأحباء.

حرارة الأنفاس يـوم النوى ** وحرة الأنفاس في المـاء.

فماؤه من أدمعي ســائل ** وناره من حـر أحشائي.

وقال في صفة حمامٍ كانت مضاويه من زجاج أحمر، وفي سمائه حمرة وبياض:

تحيرت من طيب حمامنــا ** بخيــل لي أن فيه الفلق.

فمن حمرة فوقنــا وابيضاض ** كخـد الحبيب إذا ما عرق.

رأى الدهــر ما شذ من حسنه ** فسد كوى سقفه بالشفق.

ومما يتعلق أيضاً بصفته قول الآخر، ولكنه خلطه بالنسيب، وأشار فيه إلى معنى غريب، فقال:

ولم أدخل الحمام يوم رحيلهم ** طلاب نعيم قد رضيت ببوسي.

ولكن لتجــري دمعتي مطمئنةً ** فأبكي ولا يدري بذاك جليسي" ([13]).

إنَّ تلك الطبيعة الخلابة أضفت على نفوسهم كثيرا من المرح والدعابة حتى قال قائلهم ([14]) "يداعب ويتغزل بنعجة سوداء:

وسوداء تدمى به منحــرا ** كما اعترض الليل تحت الشفق.

وأقسم لــو مثلت ليلة ** لعفت الكرى واستطبت الأرق.

فيا حســن خِصرٍ لها أحمر ** ومئزز شحــم عليه يقق.

وما رفلت في قميص الدجى ** ولا اشتملت برداء الغســـــق.

ولكــن تسيل عليها القلوب ** هوى وتذوب عليها الحـــــدق.

وقال فيها أيضا وفي كبش أملح أبياتا جميلة، ووصف"شجرة، طرحت ظلها على نهر، لم تكرع فيه ولا بعدت عنه:

وسرحة خاض ألمى ظلها نهر** أوفت عليه فلــم تنقص ولم تزد.

كما تدانيت من ثغر لمرتشف ** ثم اتقيت فلـــم تصدر ولم ترد.

كـأن أفياءها طيبا حمى ملك ** أغضى وأعطى فلم يوعد ولم يعد" ([15]).

4. تنوع التأثير الطبيعي في البياني اللساني وجوانبه:

ومن تأثير الطبيعة الظاهرية فيهم أن وصفوا النحول في جسم الإنسان، ووصفوا كيفيات السباحة، وطريقة جني التين، وصفة السحاب والخيل، وحسن الصوت عند الشبان، وتغزلوا بالنساء لخصوص ألبسة يرتدينها، وقالوا في جمال الليل، وخرير الماء وما شئت من الأشياء في الطبيعة بحيث لم يتركوا شاذة ولا فاذة إلا أولوها الاهتمام، ووأعطوها من الشعر أجمل كلام.

فلقد نظموا وتباروا في التشبيهات وتكلموا عن جمال الصبح وانبلاجه، وفي البرق والرعد والسحاب والمطر، وفي الربيع والورد والزَّهر، وتغريد الطير في الرياض ووصف الحمام، والمياه الجارية والأواجن، والقصور والبساتين والصهاريج والأشجار، ونظموا في الناعورة والرحى والمأكولات من الفواكه، وصفات الكؤوس والأقداح والسقاة والندامى، والقيان والمغنين، وفي جماليات الجسد وإشراق الوجه وتشبيه الخدود والخيلان، وفي الشَّعر وسواده وشقرته، في فتور العين ومرضها وغنجها، وفي خفوق القلب وطول الليل والسهر ومراعاة النجوم، وفي الوقوف على الديار والربوع، وفي البحر والسفن والليالي والرياح وغير ذلك من المظاهر الطبيعية المختلفة والمتنوعة، والتي هي مجال لأن يسرح الخيال من جهة، وأن تتوارد الأفكار وتهيج القرائح ثقافة وفنا وإبداعا من جهة ثانية.

فهذا شاعر "يصف صفرة الشراب وبياض الحباب:

خذها كما اطَّلَعَت إليك عرارة ** مفترة عن لؤلؤ الأنـــــــداء.

صفراء في بيضـاء تحسب أنها ** شمس العشية في قرار الماء.

وما هذه البراعة في التشبيه إلاَّ لمعاينة الطبيعة الرائعة وانعكاس تأثيراتها في الوجدان على اللسان فانطلق بشعر يملأ الآذان والأسماع.

ويقول "في صفة سيف:

ومرهف كلسان النـار منصلت ** يشـفي من الثار أو ينفـي من العار.

تخال شعلة بـــرق منه طائرة ** في عارض من عجاج الخيـل موار.

يمضي فهوي وراء النقع ملتهبا ** كما تصوب يجري كوكب ســار" ([16]).

بل إنَّ حتى آثار الأشياء التي هي أشبه بالأطلال قاموا يعبرون عنها بشعرهم، فقال قائلهم مثلا عن أثر سيل في قصيدة نجتزئ منها بقوله [الطويل]:

وقال يصف أثر مسيل:

أما ومسيل سائل الغيث كالسطر ** يؤم قرارا دائر المـــــاء كالعشر.

وقد غمر القيعان مـــاء مصندل ** كما أترع الساقي الزجاجة بالجمر ([17]).

إنَّ تلك الطبيعة المغاربية والأندلسية معا قد أمدت سكانها بالرخاء الاقتصادي جراء وفرة الخيرات وكثرة المنتوجات وتيسر السبل على الفلاحين، فكانت أرض عشق وأزهار غنَّاء، ولكنها صارت فيما بعد في عهد القسسين وتسلط الجيش أرض بؤسٍ وشقاء، فترى "في رياضها في أكثر أيام السنة زربيّة محترقة رقيقة من النبات، والفلاحون المجهدون بكل مشقة يحصلون معيشة ضنكاً من الأرض، ومتى زالت منها الملكية والكنيسة واستبداد الجيش، يجدد فيها نظام السقي وتصير فردوساً مرة أخرى. أما اليوم، فهي محرومة من رأس المال والأعمال، ولا ريب أنها كانت فردوساً .. حتى نتجت مثل ذلك النمو في السكان، وكان لأهلها ذكاء، فساعدوا به الطبيعة، وكانت الأنهار الصناعية والجداول، توزّع الماء وتروي الأرض، حيث الفلاح الإسباني المسكين اليوم، يرى المطر ينزل في رءوس الجبال، وتسيل به الأودية، وتجري رأساً إلى البحر. والقيعان الواسعة العقيمة اليوم، كانت في زمن العرب حدائق غلباً، كانت تؤتي غلاّت ذهبية، وحتى سفوح الجبال، قد سَطِّحت وألحقت بالأرض الزراعية. وفي كثير من البقاع، كانت الأرض تعطي أربع غلاّت مختلفة في سنة واحدة" ([18]).

إنَّ كل تلك الرومانسية والجماليات انطبعت في شعرهم وطفت بظاهرها عليه وأورقت فوق أبياته وخلال قصائده، ذلك أنَّ لنظرية المحاكاة قسطا وافرا ها هنا من حيث تجعل المرء يحاكيها فيترجم الجمال الكوني إلى جمال بياني بليغ.

إنَّ الثقافة والطبيعة قرينان، ولا تنفع الطبيعة نفعا تاما دون جمال ثقافي وتنوير معرفي، فشمس الكون تشرق على الجسد ولكنَّ القلب لا يصله منها إلاَّ الإحساس بالنور لا معاينة الشعاع، ولذلك كان النصارى أيام حكمهم رغم جمال الطبيعة الأندلسية يعيشون حياة همجية ظلامية بعيدة عن النور من جهة وعن الذوق السليم من جهة أخرى، بسبب الثقافة العمياء التي كانت تغزو عقولهم بحيث تعطي على ما يجلب إشراقة النفس من جمال الطبيعة، وبسبب الجهل الذي ضرب بأطنابه على العقول وطبع على القلوب فإذا بالقوم وكأنهم عمي عن المناظر الخلابة، صم عن خرير الماء وسماع الجداول، من هنا كان الجمال الحقيقي هو جمال العلم والأدب، وإن كانت الطبيعة تثمره وتزيد فيه إلاَّ أنها بمجردها لا تستطيع فعل شيء

لمن انعكست فطرته، وتغيرت نظرته، وصار كالأنعام بل أضل، وقد اعتبر ابن خلدون أن طور العقل فكرا وثقافة أعلى من طور النفس وحدها، لأنَّ "الطّبيعة محصورة للنّفس وتحت طورها، وأمّا التّصوّرات فنطاقها أوسع من النّفس لأنّها للعقل الّذي هو فوق طور النّفس" ([19]).

فأنى للشعر حينئذ أن يجد مجراه والأبواب موصدة في وجهه، وأنى لمن أدركته قبسات من نورانية الشعر أن يوزعها على الخلائق ليكثر عدد الشعراء وما هم ببالغين كثرة ولا محققين جودة وريادة.

ولهذا السبب من تضافر الثقافة والطبيعة على صناعة الشعر وجودته؛ اخترنا أن نجعل مبحث الثقافة وعلاقتها بالشعر مقدما ليليه مبحث الشعر المغاربي والطبيعة تعويلا على وضع الأمور في نصابها، وإتياننا للبيوت من أبوابها كما نأمل ونريد.

5. اشتمال الشعر المغاربي على أشهر وصَّافي الطبيعة وأبرعهم:

والواقع أنه برز شعراء كانوا يصفون الطبيعة وصفا بارعا، بيد أنَّ الشعر المغاربي اشتمل على أشهر وصافي الطبيعة على الإطلاق، ومنهم "أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة: إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري الأندلسي من أهل جزيرة شقر (Alcira) من أعمال بلنسية شاعر مجيد من أشهر وصافي الطبيعة في الشعر العربي، حتى شعره في الرثاء لم يخل من وصف الطبيعة" ([20]).

وهو شاعر كان في عصري ملوك الطوائف والمرابطين، وكذلك " أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلي: أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي الأزدي. ولد بصقلية سنة 447 وهاجر إلى الأندلس سنة 471 وعاش باشبيلية وتوفي سنة 527 وهو من أشهر وصافي الطبيعة في الشعر العربي." ([21]).

وقد أورد له ابن بسام أشعارا منها قوله "في تميم أمير المهدية ويتفجع على دخول الروم صقلية :

تدرعتُ صبري جَنَّـــةً للنوائب *** فإن لم تسالم يا زمـــان فحـــارب.

بلاد جرى فوق البــلادة ماؤها *** فأصبـح منه ناهلاً كُــــل شــارب.

فُطِمتُ بها عن كــل كأسٍ ولذةٍ *** وأنفقت جل العمر في غير واجب.

إلى أن يقول:

ويــا رُبَّ نَبْتٍ تعتَــريه مـــرارةٌ *** وقد كان يسقى عذب ماء السحائب.

عَلِمتُ بتجريبي أمــوراً جهلتُها *** وقد تجهَــلُ الأشياء قبــل التجارب!" ([22]).

وقد درس إحسان عباس تسع قصائد لابن حمديس بين فيها اهتمامه بالطبيعة ونظرته إلى الأمور واتجاهه في الشعر، معرجا على الطبيعة التي تسكن خياله ووجدانه ولا سيما صقلية موطن إقامته التي رحل

عنها واشتاقها وغناها في أشعاره، واستهجن غيرها وهجاها كما في قصيدته التي اجتزأنا آنفا ببعض أبياتها، رغم أنَّ "ابن حمديس شاعرٌ عاهدَ نفسَه على أن لا يهجو, ولكن أي ثورةٍ هذه التي يعلنها في قصيدته؟, إنه يتحدى الزمن ويهجو الصحراء الإفريقية التي عوض بها عن وطنه" ([23]).

وقد بلغ بهم الحال إلى ان يجعلوا الطبيعة طريقا مؤديا إلى حسن التخلص كي يصلوا منها إلى أغراض الشعر المتنوعة كالمدح مثلا، فمن وصف الربيع في مقدمة قصيدة لابن الابار -وغرضه التخلص لمدح الحاجب ([24]) - قوله:

لبس الربيــع الطلق برد شبابه ** وافتر عن عتباه بعد عتابه.

ملك الفصول حبا الثرى بثرائه ** متبرجا لوهـــاده وهضابه.

وأحيانا كان يبلغ بالشعراء الحال إلى ان ينسبوا صنع الجمال في الكائنات إلى يد الطبيعة، كما قال أبو عثمان السرقسطي:

ورسولي إليك أصلحك الله ** غزال كالبدر في الدجن لاحـا.

حسنته يــد الطبيعة حتى ** صيرت وصله حـــلال مباحا.

حسنت صدره بأنبـــل رما ** ن تحاكي أطرافهـــن الرماحا ([25]).

إنَّ الطبيعة في الشعر المغاربي عامة والأندلسي خاصَّة كانت هدفا ينظمون فيه ويعتبرونه غاية، وكانت في أحيان أخرى مدرجا يصلون من خلاله عن طريق حسن التخلص إلى أغراض الشعر المختلفة مجسدين اهتماماتهم التي تجلي مكانتهم الشاعرية ومقدرتهم البيانية وذوقهم الأدبي.

ومن نماذج هذا الذوق، أنَّ ابن المعتز وهو من المشارقة كانت صوره "المستمدة من الجواهر والأحجار الكريمة قد تغلغلت أكثر شيء في شعر الطبيعة الأندلسية، ونكتفي منها؟ وهي كثيرة - بهذا المثل الذي لحظه الثعالبي: وهو قول سعيد بن محمد بن العاص المرواني:

والبدر في جو السماء قد انطوى ** طرفاه حتى عاد مثل الزورق.

فتراه من تحت المحــاق كـــأنه ** غرق الكثير وبعضه لم يغرق.

وأنه مأخوذ من قول ابن المعتز:

انظر إليه كزورق من فضة ** قد أثقلته حمولة من عنبر.

وصورة الشاعر الأندلسي فيها زيادة لطيفة، وهي أدق وأجمل موقعا [وذوقا] من صورة ابن المعتز" ([26]).

ومع هذا فإنَّ التقصير من طبيعة البشر وبلوغ الكمال ليس من شأنهم، بيد أنَّه كان بالإمكان تلافي بعض العجز لو أنَّ الأندلسين حاولوا استيحاء طبيعتهم بشكل أكثر، ولو فعلوا لاستغنوا عن تشبيهات بن المعتز ومناظرات ابن الرومي ولبلغوا منزلة أعلى ممَّا وصلوا إليه جمالية وإبداعا، تأثرا بالطبيعة ومحاكاةً لها.

3. الخاتمة:

وختاما فإنَّ استيحاء الطبيعة المغاربية بشقيها المغربي والأندلسي لم يكن بالمنزلة الدنيا، ذلك أنَّ للطبيعة شأنٌ عجيب في التَّأثير على الناس من المقيمين والسَّائحين، ذلك أنَّها مكانٌ ملهِمٌ يعطي للإنسان أكبر قدر من الخيال والإلهام الرقيق، ويصبغة بالإحساس الشفاف والشعور المرهف، ولا سيما بالنسبة للشعراء الذين هم أصلا مؤهلون لمثل هذه الاستمدادات التي تحرك السواكن وتهز الأفئدة وتثمر البيان بعد جولة ولو عابرة في الطبيعة كما يثمر النحل العسل بعد جولاته وتنقلاته.

تتمثل **نتائج البحث** باختصار في الآتي:

- توضيح جدلية العلاقة بين الطبيعة والإنسان كونه جزء منها.
- كيفية عمل المؤثرات الخارجية في تكوين المنحى الفكري عند البشر وخاصة عند الشعراء.
- الطبيعة مصدر إلهام لمن يتأهل للتلقي ببراعته وحسه، أو بطبعه وحدسه، ليترجمها في شعرا ونثرا وإبداعا.
- الجهة المغاربية تنوعت فيها التأثيرات لأنَّ مناخها متنوع وأرضها ذات بيئات مختلفة كالبيئة الصحراوية والتلية وغيرها مما له أثر في التكوين النفسي للإنسان من جهة وللذات الشاعرة ثانيا وعلى وجهة الخصوص.
- الشعر المغاربي اشتمل على أشهر وصافي الطبيعة من الشعراء، وأكثرهم تفننا فيها ومحاكاةً لها.

الهوامش:

[1] - الرقاق: هي الأرض اللَّيِّنَة السَّهلَة من غير رمل، والميثاء هي الدَّمِثَة الحسناء. يُنظَر؛ عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (ت: 429هـ) "فقه اللغة وسر العربية" ت: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط1، عام: 1422هـ - 2002م، ص196.

[2] - علي بن مصطفى الطنطاوي (ت: 1420هـ) "قصص من التاريخ" ت: مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة – السعودية، ط 10، عام: 1427هـ - 2007م، ص182.

[3] - ابن بسام، علي الشنتريني، أبو الحسن (ت: 542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط 1، عام: 1981م، ج2/ ص916 – 917.

[4] - إحسان عباس (ت: 1424هـ) "تاريخ الأدب الأندلسي -عصر سيادة قرطبة –" دار الثقافة – بيروت، ط 1، عام: 1960 هـ، ص101 – 102.

[5] - شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت: 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ت: إحسان عباس، دار صادر- بيروت – لبنان، ط1، عام: 1997م، ج4/ص288، وقد اشتهر عند أكثر المشارقة أنَّ هذه الأبيات قالها الشاعر أبو نصر أحمد بن يوسف السليكي المنازي الكاتب ومنهم ابن خلكان في "وفيات الأعيان"، ت: إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، لبنان، عام: 1900م، (143/1)، ولكن الأندلسيين ينسبونها لحمدونة بنت زياد، يقول المقري التلمساني في النفح(288/4): "وممن جزم بذلك الرعيني، وقال: إن مؤرخي بلادنا نسبوها لحمدة من قبل أن يوجد المنازي الذي ينسبها له أهل المشرق" انتهى.

[6] - عباس محمود العقاد، ساعات بين الكتُب" دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 2، عام: 1969م، ص111 – 112.

[7] - النمل: 42.

[8] - المرجع نفسه.

[9] - محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (ت: 1406هـ) "دولة الإسلام في الأندلس" مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، عام: 1417هـ- 1997م، ج1/ص211.

[10] - ينظر؛ محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (ت: 1406هـ)، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، عام:1417هـ-1997م، ج2/ص56.

[11] - محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (ت: 1406هـ) "دولة الإسلام في الأندلس" مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، عام: 1417هـ- 1997م، ج2/ص55.

[12] - ينظر؛ جوزيف ماك كيب " مدنية المور في إسبانيا " ترجمة محمد تقي الدين الهلالي.

[13] - علي بن بسام الشنتريني، أبو الحسن (ت: 542هـ) "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ت: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط 1، عام: 1981م، ج1/ص302.

[14] - المصدر نفسه، ج6/ص628.

[15] - المصدر نفسه، ج6/ص629.

[16] - المصدر نفسه، ج6/ص635.

[17] - المصدر نفسه، ج6/ص637.

[18] - محمود شيت خطاب (ت: 1419هـ)، قادة فتح الأندلس" مؤسسة علوم القرآن- منار للنشر والتوزيع، ط 1، عام: 1424هـ- 2003م، ج1/ص177.

[19] - عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت: 808هـ) "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ت: خليل شحادة دار الفكر، بيروت، ط 3، عام: 1408هـ - 1988م، ج1/ص581.

[20] - أسعد (أبو المكارم) بن مهذب (الملقب بالخطير أبي سعيد) بن مينا بن زكريا، ابن مماتي (ت: 606هـ) "لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة" بدون، ص63.

[21] - أسعد (أبو المكارم) بن مهذب (الملقب بالخطير أبي سعيد) بن مينا بن زكريا، ابن مماتي (ت: 606هـ) "لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة" بدون، ص67.

[22] - أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت: 542هـ) "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ت: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط1، 1979م، ج326/7. وانظر منه ج7/ص271.

[23] - إحسان عباس (ت: 1424هـ) "العرب في صقلية - دراسة في التاريخ والأدب-" دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط1، عام: 1975م، ص246.

[24] - ينظر؛ محمد بن الحسن الكتاني الطبيب، أبو عبد الله (ت: نحو 420هـ) "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس" ت: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط 2، عام: 1981م، ص137.

[25] - ينظر؛ محمد بن الحسن الكتاني الطبيب، أبو عبد الله (ت: نحو 420هـ) "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس" ت: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط 2، عام: 1981م، ص137.

[26] - إحسان عباس "تاريخ الأدب الأندلسي –عصر سيادة قرطبة-" مرجع سابق؛ ص101.

قائمة المراجع:

1. ابن بسام، علي الشنتريني، أبو الحسن (ت: 542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط 1، عام: 1981م.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت: 808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ت: خليل شحادة دار الفكر، بيروت، ط 3، عام: 1408هـ - 1988م.
3. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ت: إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، لبنان، عام: 1900م.
4. إحسان عباس (ت: 1424هـ) "تاريخ الأدب الأندلسي -عصر سيادة قرطبة –" دار الثقافة – بيروت، ط 1، عام: 1960 هـ
5. أسعد (أبو المكارم) بن مهذب (الملقب بالخطير أبي سعيد) بن مينا بن زكريا، ابن مماتي (ت: 606هـ) "لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة" بدون.
6. الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (ت: 429هـ)، فقه اللغة وسر العربية، ت: عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط1، عام: 1422هـ - 2002م.
7. خطاب، محمود شيت (ت: 1419هـ)، قادة فتح الأندلس، مؤسسة علوم القرآن-منار للنشر والتوزيع، ط1، عام: 1424هـ-2003م.

8. شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت: 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ت: إحسان عباس، دار صادر- بيروت – لبنان، ط1، عام: 1997م.
9. الطنطاوي، علي بن مصطفى السوري (ت: 1420هـ)، قصص من التاريخ، ت: مجاهد مأمون ديرانية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة – السعودية، ط 10، عام: 1427هـ - 2007م.
10. عباس، إحسان (ت: 1424هـ) "العرب في صقلية - دراسة في التاريخ والأدب-" دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط1، عام: 1975م.
11. العقاد، عباس محمود، ساعات بين الكتُب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، عام: 1969م.
12. الكتاني، محمد بن الحسن الطبيب، أبو عبد الله (ت: نحو 420هـ) "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس" ت: إحسان عباس، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط 2، عام: 1981م.
13. ماك كيب، جوزيف، مدنية المور في إسبانيا، ترجمة محمد تقي الدين الهلالي، بدون.
14. محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (ت: 1406هـ)، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، عام:1417هـ-1997م.